رواية

إسلام الشريف

لأنك تستحقين السعادة

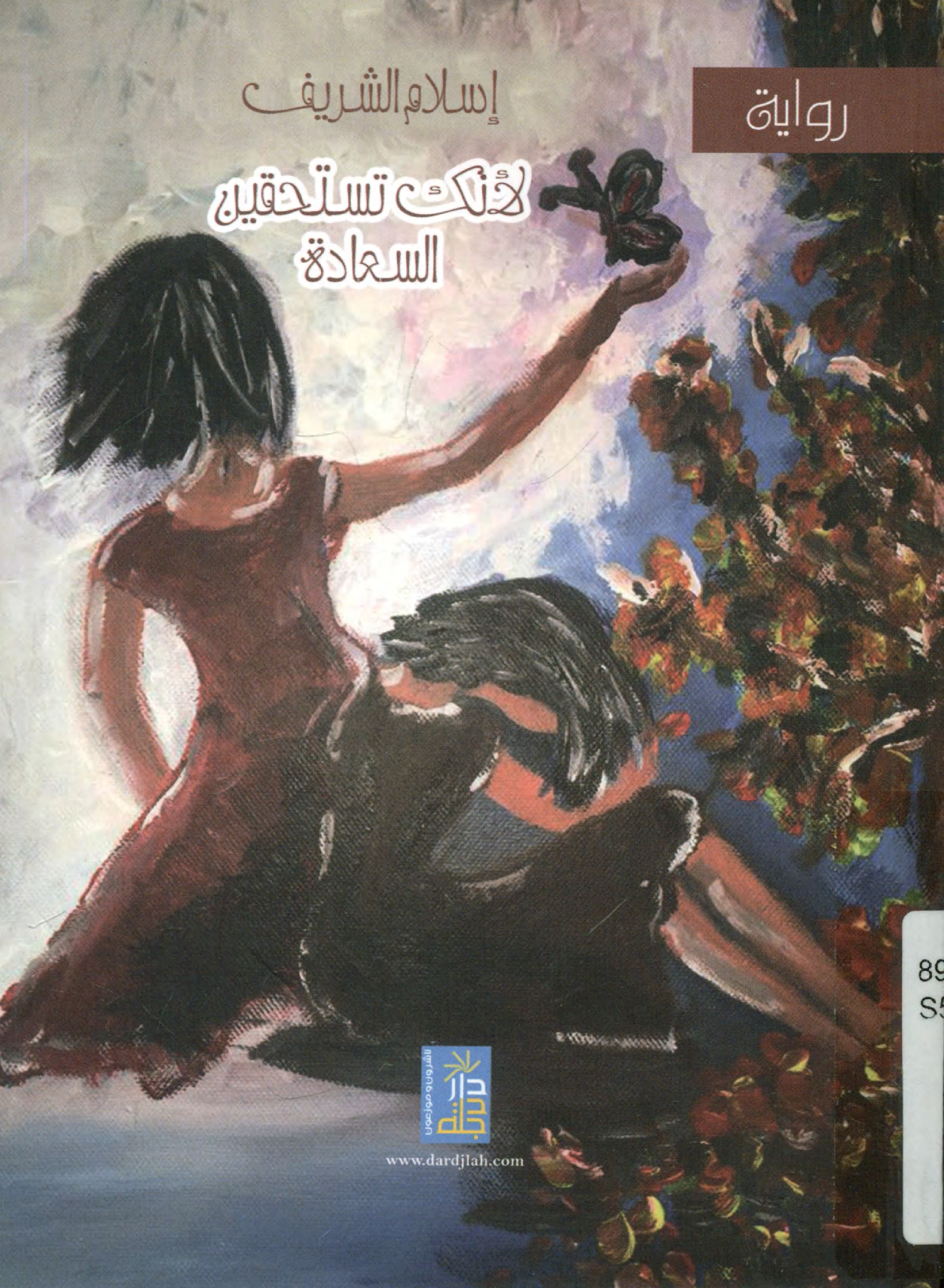

دار دجلة ناشرون وموزعون
www.dardjlah.com

89
S5

مكتبة طريق العلم

لتحميل المزيد من الكتب

تفضلوا بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

لأنكِ تستحقين السعادة ....!!

لأنكِ تستحقّين السّعادة ...!!

إسلام الشريف

الطبعة الأولى
2016م – 1437هـ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2015/8/4086)

813.9

الشريف، إسلام حسن

لأنك تستحقين السعادة/ إسلام حسن الشريف. — عمان: دار دجلة للنشر والتوزيع، 2015

( ) ص.

ر. أ: (2015/8/4086)

الواصفات: القصص العربية// السعر الحديث

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

دار دجلة
ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان — شارع الملك حسين — مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171 — الأردن

E-mail: dardjlah@ yahoo.com
www.dardjlah.com

978-9957-71-586-1: *ISBN*

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب. أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات. أو نقله بأي شكل من الأشكال. دون إذن خطي من الناشر.

All rights Reserved No Part of this book may be reproduced. Stored in a retrieval system. Or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher

الإهداء

إلى تلك القلوب الطيّبة، البريئة، إلى تلك القلوب التي لطالما بكت وحدها، تألّمت وحدها، إلى كلّ من نشر السعادة في طريق غيره، إلى كلّ من أوجع قلبه خذلان صديق، أو غدر قريب، إلى كلّ من تركه حبيب.

إليكم يا من تستحقون السّعادة !!

إلى من أعاد ثقتي بنفسي، لأعود لبناء أحلامي من جديد

إلى عائلتي، أصدقائي، وكلّ من وقف إلى جانبي

إلى من لا أعرفه ولكنه يعرفني، ذاك الغريب !!

إليكم، لأني أحبّكم، أحبّكم جميعاً...

المقدمة

سنكتب من أجل ألّا نموت، سنكتب من أجل أحلامنا !!!

"محمود درويش"

أحياناً تخذلنا الكلمات إن نطقناها، تخذلنا الحروف، يخذلنا صوتنا المخنوق، تخذلنا دمعتنا الفضوليّة حين تتسلّل أمام الغرباء، يخذلنا ذاك الاختناق الذي يفضح مشاعرنا !

و حين يخذلنا كلّ هؤلاء، ينصفنا القلم، وتلك الورقة الصمّاء، من لا صوت لهم، من لا روح فيهم، متجردين من المشاعر! ينصفوننا بكلماتٍ لا نعلم السرّ وراء كتابتها، لا نعلم إن كانت حقيقة، أم مجرّد وهم!

حين نثرثر ونبوح، نزيح حملاً ثقيلاً عن صدورنا، نرمي بكلّ الذكريات العالقة، نعود لنتنفّس الهواء. فذكرياتنا تغدو ضيفاً ثقيل الظلّ، مهما كانت؛ سعيدة أم حزينة، فإنّها تملأ صدورنا بأكسجينٍ منتهي الصّلاحية يخنقنا !

إذن، لا بدّ لنا من بداية. لا بدّ أن نضع قدمنا على الطّريق الصّحيح، لا بدّ أن نؤمن بأنفسنا، ولا بدّ لنا أن نثبت وجودنا!!

نحن أحياء، نرى، نسمع، نفهم، لكننا صامتون! لا نجيد الكلام حين نكون بحاجته، لكن وحده القلم يكتُبنا!

الصمت ليس ضعفاً، الصمت قوّة! من يتكلّم كثيراً؛ ضعيف، لا سبيل له سوى إسكاتك بضجيج صوته!

مختلفون، كلّنا مختلفون. وإن نحن تقبّلنا اختلاف بعضنا بعضاً، سنعيش في سعادة !!

وذاك لأننا نستحقّ السّعادة ....!!!

(1)

كان الذهول يكسو ملامحي حين أخبروني بتلك الحقيقة، لم أصدّقها في البداية؛ أو لنقل إنني لم أرد أن أصدّق ذلك!

لم أكن أعلم أنّ أمرها سيهمني. أو أنّني سأقضي يومي ذاك حزينة؛ غارقة في التّفكير بها!

كيف لهذا أن يحدث، كيف لها أن ترحل بهذه البساطة، أيعقل ذلك! بعد كلّ ذاك الانتظار لشروقِ شمسٍ تبدّد ظلام أيّامها ...!

أبعد كلّ الصبر الذي صبرته، وتلك الضّحكات التي كانت تستهزئ بها. كيف تستطيع تحمّل هذه الحقيقة!

ألن تحارب للبقاء؟ ألن تتباهى بهذا النجاح العظيم أمام كلّ من استصغرها! ألن تفعل شيئاً! هل هي ضعيفة هكذا!!

كيف نترك حياةً ناضلنا لأجلها أيّاماً طويلة! كيف نتخلّى عن أبسط حقوقنا؟ كيف لنا أن نرمي وراء ظهورنا هذا الحلم الجميل!

نعم، حلمٌ جميل! انتظرناه طويلاً، ورسمنا تفاصيله بكلّ اتقان. أنخذله الآن بعد أن جاءنا!!

لا لا، ما زلت لا أصدّق ذلك!!

كيف لها أن ترى الشمس مشرقةً وترحل؟ كيف لها أن تشعر بنسيم الصّبح يداعب جسدها، وترحل؟! كيف لها أن تلامس الغيمَ بيديها، وترحل! كيف لها أن تجذبنا بجمالها، ومن ثمّ ترحل!!

لم أجد تفسيراً لكلّ ذلك. لكنّي استطعت أن أعتاد الحقائق ...

كلّ شيءٍ جميلٍ يرحل! وكلّ حلمٍ حاربنا لأجله سنين طويلة من عمرنا؛ يرحل! وكلّ ابتسامة فرحٍ ابتسمناها؛ سترحل! وكلّ دمعة حزنٍ ذرفناها؛ سترحل! إذن لا شيء جميلاً سيبقى!! فلماذا تبقى هي؟!!

هل ستكون مختلفةً لتبقى؟ بالطّبع لا؛ فالجميع متشابهون! متشابهون بأفعالهم، متشابهون بكذباتهم، متشابهون بكلّ شيء؛ حتى بنكران هذا التشابه! فالكلّ يعتقد أنه مختلف، وأنّه سيكون الأفضل، ولا يعلم أنّ من قبله قالها، ومن سيأتي بعده،أيضاً سيقولها! يا للسخرية!!

فلنعد إليها، تلك التي ترحل بهدوء؛ دون أيّ ضجيجٍ يذكّرنا بها! تأتي بهدوء وترحل به. ولا شيء بينهما يثبت أنّها مرّت من هنا!! هل تساءلتم من هي! إنّها الآنسة "فراشة"، نعم فراشة!! تلك الجميلة ذات الألوان الجذّابة. تلك الهادئة، تلك التي تعلن قدوم الرّبيع، وتخرج من شرنقتها. تلك التي كانت يوماً داخل بيتها يرقةً بشعة!!

لا أعلم لمَ كانت أوّل من خطر على بالي حين أمسكت قلمي لأبدأ الكتابة. ربّما لأنّي رأيت من خلالها واقعاً قد يشبهني، فلطالما فكّرت بهذا الأمر، "يوماً ما، وحين تزورني السّعادة؛ سأرحل". نعم سأرحل، بكلّ هدوءٍ أنا أيضاً. إذن فإنّي أشبهها، لا فرق بيني وبينها، كلانا ضعيف، هادئ، لا ضجيج لنا يُسمع الكون. ولا أثر لنا لنتركه وراءنا.....!

سأتعلّم أن أكبر وحدي، أن أفرح وحدي، أن أحزن وحدي، وأن أتألّم وحدي، سأتعلّم الصمت، وسأكون متقنةً لدوري، فقد أجدت التّمثيل وارتداء الأقنعة المزيّفة!

لطالما قلت في قرارة نفسي، "لن أكون منافقةً أبداً أبداً". لكنّنا في مجتمع يحبّ النفاق، يعشق المجاملات، و يتفنّن في انتقاء

الكلمات المزيّفة ليظهر أمامك بأحسن صورة! منافقون بكلّ شيء، حتى الابتسامة!!

لكنني قرّرت الاختلاف، نعم سأكون مختلفة. سيسمع الكون ضجيج حروفي، وستنحني السّعادة مستقبلةً حضوري. سيتنحّى الحزن أمام فرحي، وسترحل الدّمعة، أمام ضحكاتي!

سنعيش الحياة مرّةً واحدة، فلا داعي للحزن إذن، طالما أنّ الأرض تدور، والقافلة تسير!

*****

لعلّ ما سبق من سطور أدخلكم في بحور من الشتات، لا بأس سنبدأ من جديد، كانت حروفي تحمل بعضاً من ملامحي، كتبتها لتزيل بعض الضباب من حولي، لتنكشف الرؤية قليلاً، لتبصروا من خلالها واقعاً قد لا يشبهني.

وعلى وقع البداية، ها هنا وُلدت الرواية ......!!!!!

*****

لقــاء........!!

(2)

انتظَرت هذا اليوم كثيراً، وها هي تتزيّن بأجمل الأثواب، تقف منتظرةً دخوله من الباب ليُمسكَ يدها ويسيرا معاً، ليشهد جميع الحاضرين أنّها أميرة قلبه الوحيدة.

بهدوء وسحرٍ يعبق بالأجواء؛ تنظر إلى عيونهم وتبتسم، استرقت نظرةً بريئة إلى عينيه، وجدتهما تفيضان بدمعٍ لم تدرك معناه، أكان سعيداً أم الحزن أبكاه!!!!

لم تلقِ له بالاً، واستمرت برسم ابتسامتها السّاحرة، أكملت جميع طقوس زفافها تماماً كما أرادت ...

فتحَ باب بيته وأشار بيده ليأذن لها الدخول، جلست تنتظر وجلس يتأمّلها وبصوتٍ مخنوق همس لها:

"لم تكوني أنتِ من أردتكِ لتنيري سمائي، نعم فقد كان زواجاً تقليدياً..

وخضوعاً لرغبة أمّي، وقفت في ليلتي هذه بجانبكِ!!!"

انسحب من غرفتها، تركها مكسورة الأحلامِ تبكي وحدها...

تماماً كما كانت؛ لم يتغيّر شيء. جلست تندب حماقتها حين انقادت وراءَ حلمٍ مستحيلٍ كمثله!!!

لكنّها لم تكن تريد شيئاً، رسمته في خيالها صدراً دافئاً تستند إليه عند حزنها، ويداً حانية تمتدّ لتمسح دمعتها، رجلاً شرقياً غيوراً عليها ....

فقط أرادت أن تحبه في كلّ يومٍ ألف عامٍ آخر!!!!

غفت الصغيرة، نعم طفلتنا الصغيرة، فالبراءة تتجسّد في عينيها؛ كبريقِ أملٍ يشوبه الحزن المجهول!!!!

*****

فلنعد قليلاً إلى الوراء، كانت هي الغريبة وسط عائلتها، لم يكن لديها أشقّاء، قضت معظم أوقاتها تحاول عبثاً إفشاء أسرارها إلى مذكّرتها، قليلة الشكوى، يغلب على ملامحها ابتسامة أنيقة تخفي وراءها جرحاً عميقاً!!

طفولة عاديّة محفوفة ببعض الشّقاء، كانت تتلقّى اللّوم الدائم على أتفه الأسباب؛ سواء أكانت هي المذنبة أم لا..!!

في مدرستها وبين صديقاتها، وجدت مشاعر مفقودة؛ حنان الأخت وعطف الأم، كبرياء الأخ وعظمة الأب. كلّ يوم تمنّت لو أن هؤلاء حولها، لعلّ وجودهم يلملم برد عمرها ....

في خيالها وجدت ما حلمت به، وجدت المكان الذي تنتمي إليه. وعلى وسادتها كلّ مساء تحادث دميتها الصّغيرة؛ تبوح لها وتبكي بين أحضانها.

وعند الصباح ترتدي تلك الابتسامة السّاحرة، وكأنّ شيئاً لم يكن ...

*****

أمّا في الواقع، فهي الآن تحت تأثير صدمةٍ عميقة، لم تدرك بعد ما قد قيل؛ تساؤلات حائرة تجوب تفكيرها، والسؤال الأهم:

"هل سأعود حقّاً إلى سابق عهدي؟ أستعود الوحدة لتنهش معظم وقتي!"

أغمضت عينيها ونامت، وفي الصّباح استيقظت لتجده مفارقاً لها؛ تاركاً إيّاها في منزلٍ غريب الملامح عنها، بين أربعةِ جدران صمّاء!! ولأنها تدرك هذه التفاصيل، لم تنطق بشيء؛

اكتفت بورقةٍ بيضاء، لتخطّ عليها حكايةً جديدة؛ قد تكـون أقـسى من سابقتها!!

وبعد كلّ هذا العناء، انقضى النّهار دون أن تشعر.. سمعت صوتَ البابِ يُفـتح، فـدخل هـو ليراهـا أمامـه. لم يلـقِ لهـا بـالأ؛ فأوجعها هذا النكران، وكالعادة حافظـت علـى طقـوس صـمتها، ورجعت تجرّ أذيال الخيبة الى غرفتها، ناسيةً تفاصيل حياتها الكاملة متناثرةً على أوراق بيضاء فوق الطّاولة .....!!!

جلس يعبث بين أوراقها، علّه يجد ما يكشف له سرّ صـمتها ... بدأ بالصفحة الأولى؛ وجد بضع كلمات :

"لو نطقَ يوماً صمتي، ماذا تراه سيصرخ ليقول؟!!"

ضحكَ باستهزاء، ظنّ أنها كباقي الفتيات؛ متجرّدة المـشاعر ...وكلامها ما هو الّا ترتيب حروفٍ لا أكثر !!

قرّر الاستمرار بتقليـب الـصفحات؛ واحـدةً تلـو الأخـرى ..والفضول في وجدانه يزداد ...

شعرَ بوقع خطواتها تقـترب، فـأعرض عـن مكانـه، وبكـلّ هدوء جمعت ما كان قد نُسي!!!

هي أيضاً كانت منسيّة طوال السنين التي قضتها بين أحبّتهـا، كانت تعيش لغيرها.. ونادراً ما تتذكّر نفسها. لم تتصالح يومـاً مـع روحها، أنهكتها حتّى التّعب، قست كثيراً وتنازلـت عـن أبسط حقوق سعادتها..!!

غالباً ما كانت تقضي وقتها تتمعّن في صورها القديمة، يومـاً ما حين كانت تنبع ابتسامتها من صميم قلبها، حين كانت تجهل الكثير ..

في ذاك الوقت؛ رسمت كلّ شيء بإتقـان، كـلّ الـصعوبات والعراقيل جعلتها ممكنة؛ لم تعرف يوماً درب المستحيل.

وحين نامت غفلتها، رأت هي الحقيقـة، أبـصرت كـلّ هـذا الظلام من حولها.

أدركت أنّ ما بقلوبهم؛ لا تعكسه مرآة وجـوههم الخادعـة، ولا تلك الابتسامة الزائفة !!

*****

(3)

أفزعها رنـين هاتفهـا صـباحاً، كـان رقـم والـدتها واضـحاً أمامها؛ لكنّ صوتاً مخنوقاً أجابها، ليخبرها أنّ والدتها قـد تمّ نقلـها الى المشفى إثر حادث سير ...

بلا تفكيرٍ منها صرخت وأجهشت بالبكاء، أيقظه ما سمـع؛ فتقدّم إلى باب غرفتها واستأذن بالدخول.

في هذه المرّة لم يقيّدها المنطق ولا الحدود، حين اقـترب منهـا وقبل أن تقول شيئاً؛ ارتمت بين ذراعيـه كعـصفورٍ جـريح، ورأفـة بحالها لم يمانع ..

كانت تلك الثواني؛ كأسطورة عشقٍ لم تصدّقها ..!!

هرعت إلى المشفى وكان هو معها، تسارعت خطواتها حتـى وصلت إلى باب غرفةٍ مغلق، لتجلس وتنتظر خبراً قد يخفّف عنهـا قلقها ....

"الأطبّاء في كلّ مكان، كم أكرههم"...!!!

تمتمت ببضع كلمات؛ من يلومهـا، فقـد خـاب ظنّهـا بهـم. حين كانت تزورهـم تزداد مرضاً، عيـونهم دائمـاً حـائرة؛ ينظـرون

إليها ويصفون لها المسكّنات الكاذبة، تلك التي لم تخفّف يوماً وجـع قلبها؛ بل كانت تزيد نسبة بؤسها لا أكثر.

فُتح الباب أمامها وخرج أحدهم، كانت مـستعدةً تماماً لأي شيء؛ فعلى الرغم من ضعفها استطاعت تمالك نفسها.

شهيق ثمّ زفير؛ كلمات الطبيب لم تغادر تفكيرها:

"ستكون أمّك بخير؛ لا تقلقي"!!

أسعدها هذا الخبر ، فتلك الحضن الـدافيء؛ جليستها منذ الصّغر، كيف لها أن تتخلى عنها الآن!!

*****

(4)

كان يراها كلّ يومٍ تذبل أمام عينيه أكثر، ذات ليلة اقترب منها ليسألها عن أحوالها:

"ما بالك؟ لماذا أراكِ حزينة، وفي كلّ يومٍ تزداد حالتك سوءاً؟؟ هل زرتِ الطّبيب؛ أتريدين أخذ موعدٍ للغد؟؟"

نظرت إليه طويلاً، في تلك اللّحظة؛ تمنّت لو أنّ كل الحواجز بينهما تزول، لو أنّها تجهشُ ببكاءٍ يريح وجعها، لو أنّها تستطيع الصّراخ بوجه كلّ من آلمها. في تلك اللّحظة؛ صرخت بصمت، وبكت بهدوء ....

جاملته كعادتها مع كلّ الغرباء؛ لتوهمه أنّها بأحسن حال. هو الآخر ليسَ غبيّاً، كان يدرك حقائق في السرّ عنها، يبدو أنّه يهتم؛ لكنّ كبرياءه العنيد يمنعه من البوح لها ....

كان يريد أن ينتشلها من بحور الضّياع التي أغرقتها!!

شيءٌ ما بداخله تغيّر، نبض قلبٍ أوقفه الزمن عاد إلى الحياة من جديد.

*****

خرج إلى عمله باكراً، حين استيقظت لم تجد الكثير لتفعله.

فكّر كثيراً حتّى توصّل إلى هذا القرار، وفي المساء حين عاد بابتسامةٍ قال لها:

"أريد أن نصبح أصدقاء، وأن تخبريني أدقّ تفاصيلك المملّة، فقصّتي الجديدة تحتاج إلى مغامرات مجنونة!!"

استغربت قليلاً؛ لكنّ اقتراحه أعجبها، فهي أيضاً بحاجة لمن يؤنس وحدتها.

ليلٌ أسود، بدرٌ مكتمل، نجومٌ تتدلّى كمصابيح، هواءٌ منعش؛ وأنتِ...لا شيء آخر ينقصنا. قالها بينه وبين نفسه؛ مغرورٌ هو، لماذا لم يفرحها ببضع كلمات!!

*****

كان يريد أن يبدأ حواره معها بأسلوبٍ أنيق

- سعد: ماذا فعلتِ اليوم؟؟

- ريم: لا شيء مهماً!!

- مثل ماذا؟؟

- استيقظت من النوم، وكعادتي؛ شربت فنجان قهوتي و ..

- كيف هي قهوتكِ؟؟

- أحبُّ أن أشربها حلوة!!

- في نفسه "كعينيكِ"، كيف هي طفولتكِ أراهن بأنك قد كنتِ طفلةً شقيّة!!

- على العكس، فقد كنت مسالمة؛ طفلةً هادئةً جدّاً!!

- وكيف ذلك؟ أيوجد طفلٌ هادئ!!

- كنت أنا؛ لم أقترب يوماً من الغرباء، ولم أحاول عيشَ مغامرةٍ أذكرها في كِبري.... في كلّ جلسةٍ للأصدقاء وحين أشعر بعدم التّرحيب من أحدهم؛ أنسحب بهدوء، ليكملوا أحاديثهم بسعادة؛ دون الشّعور بأيّ نقص!!

- وماذا عن أيّام دراستك الثّانوية؛ هل كانت حقّاً أيّام مراهقةٍ صعبة؟؟

- كان لي صديقات، أحببتهن كثيراً. كنت أرى فيهن تجسيداً لكلّ حلمٍ خذلني؛ شقاوتهن، ضحكاتهن، ثقة النّفس تلك لم تكن تفارقهن ... يمرحن، يلعبن وكأنّ الدنيا كانت ملكاً لهن، أشتاقهن كثيراً!

- هل حاولتِ الاتّصال بهن، أو حتى البحث عنهن بعد غياب كلّ هذه السنين؟

- نعم، لكنّي تمنّيت لو بقيت بعيدة؛ لبقت صورتهن النّقية محفورةً في قلبي.

لكن الآن، لم أعد أدري !! تغيّرت حياتهن كثيراً. أتعلم؛ كان يتملّكني دوماً الفضول لأعرف أخبارهن، علّهن في إحدى المرّات يبادرنني بمثل السؤال!! لكنّي كنت واهمة؛ فقد كان انتظاراً زائفاً!!

*****

أيقن سعد أنّ فتح دفاتر ريم القديمة؛ سينثر معه رماد ذكرياتٍ أحرقتها، وسيزداد الأمر تعقيداً، وسيرمي بها إلى مسافاتٍ بعيدة. تلك الحواجز بينهما ستعلو .... قرّر التوقّف ها هنا؛ محاولاً البدء من جديد.

سكتَ سعد ومثله ريم؛ جلست تحدّق طويلاً في ذاكَ القمر البعيد، وهو كذلك؛ لكنّ قمره كان قريباً منه. قادته تفاصيلها إلى ألفِ سؤالٍ وسؤال...

فما كان منه إلّا أن سألها:

- بماذا حدّثكِ القمر؟ أم أنّك تبوحين له ببضع كلمات!

- لا، لكنه على الرغم من وحدته؛ يزداد في كلّ ليلٍ إشراقاً! جميلٌ هو؛ ينير كلّ هذا الظّلام من حولنا، دون شكوى أو ملل .... وإن حاولنا الاقتراب منه ولو قليلاً، تنكشف أمامنا خدعته الكبرى!

- ماذا تقصدين؟ وعن أيّ خدعةٍ تتحدّثين!

- ذاكَ القمر؛ من أنار يوماً دروب العاشقين، إن اقتربت منه ستدرك مدى ظلمته وصعوبة تضاريسه. وهذا النّور المشع، ما هو إلّا انعكاس شمسٍ تأبى الغروب!

- غريبةٌ أنتِ!

- لماذا؟ هل لأنّي واجهتك بالحقيقة؟!

- ربّما، ولأوّل مرّةٍ أستمع لوصفٍ كهذا.

أعلم ذلك، فالجميع يبالغون. يعتبرونه كحلم بعيد المنال، قصة أسطورية؛ وكأنه منبع الجمال الدائم، والأمل الذي لا يزول! كمثلي حين كنت غارقةً في أوهامي.

امتلأت عيناها بالدّموع، وآثرت الصّمت. أدرك سعد انسداد الطّريق في وجهه هذه المرّة!

*****

لم تنم ريم في تلكَ اللّيلة، من جهة أعجبها ذاك الحديث اليتيم بينهما؛ ومن جهةٍ أخرى أضاعت طريقها، بوسطِ صحراءِ صمتها هبّت عليها رياح الذكريات من جديد؛ شيءٌ من الماضي لم تَطَلْهُ يدُ النسيان!

استيقظ على صوتِ صراخها منتصف اللّيل، فأسرع إلى غرفتها؛ ليدخلها دون استئذان. وجدها جالسةً غارقة في خوفها.

استفسرّ عمّا حدث، فطالبته بكأسٍ ماء!

جلس بجانبها ليطمئن عليها، نظرة الخوفِ تلك الّتي ارتسمت في عينيها؛ لم تغادر ذهنه، كانت ترتجف ولم يكن بوسعه فعل شيء!

لو أنّه أمسك يدها حتى تهدأ، لو أنّه أشعرهاِ بالأمان بقربه!

أدار ظهره مستعداً للخروج، وقبل أن يصل نادته ريم:

- سعد!!!

التفت إليها، كانت عيناها تلمعان؛ لم تنطق بشيء، وهو لم يكن يدري أنّها بحاجةٍ إليه!

في الصباح وحين سألها عن ليلتها، أخبرته أنه مجرّد كابوسٍ أزعجها. لم يدرك سعد أنّه بطلٌ لأحلامها، وأنّه في تلك اللّيلة المشؤومة؛ كان مفارقاً لها!

*****

ذهبت إليه وسألته أن يسمح لها بزيارة أهلها، لم يعارض فكرتها؛ بل أراد هو الآخر الذهاب معها.

في المساء كانت تجهّز نفسها، وعند انتهائها وجدته بانتظارها.

بعينيها الجميلتين؛ رسمت له ابتسامة شكرٍ وامتنان، ودون أن ينطق بشيء انطلق بسيارته قاصداً بيت أهلها.

على الإشارة الحمراء؛ توقفت السيّارات، طفلٌ صغير يحمل بين يديه ورداً أحمرَ للعشّاق، اقترب من سعد وتوسّل إليه الشّراء.

لم يستطع الرّفض، فما كان منه إلّا أخذ ثلاثَ وردات. جلست ريم تتساءل: أتراه يكون لها بإحدى الوردات نصيب؟؟ هل سيفرح قلبها باستنشاق عبيرها!

حين وصلت ارتمت بين أحضان والدتها كطفلٍ تائه؛ كانت هذه أوّل مرة تتذوّق فيها حرارة دفء أمّها! تحدّثتا كثيراً حتّى التّعب؛ كان سعد في أغلب الأحيان مستمعاً لا أكثر.

مساءً عادا إلى منزلهما، ومرّت الأيّام مسرعةً بانتهاء الخريف، وشتاءً برائحة المطر؛ بدأ بطرق نوافذهما كلّ مساء!

*****

فـــراق........!!

جميلٌ هو الشّتاء، برائحة المطر ودفء الأنفاس، جميلٌ باقترابنا من أحبّتنا والاستماع إلى الألحان كلّ مساء! جميلٌ بما فيه من مودّة والاجتماع على كوب شايٍ حول المدفأة. رائع هو الشّتاء، حتى لو بات مختلفاً؛ حتى لو قضيناه مع أنفسنا، دون آخر يؤنسنا!

حين تعانق أوّل قطرة ماءٍ التّراب؛ تبدأ قصّة العشق، يبدأ فصلٌ جديد في الحكاية؛ وتنتهي كلّ أوجاع الفراق الطّويلة.

أوّل قطرة، وأوّل ابتسامة، أوّل لقاء؛ وأوّل همسة حب، كلّ شيءٍ له رونقه الخاص؛ ما أجملها البداية! بكلّ ما تحمله من وعود؛ وبكلّ ما تهديه من أحلام. وياللسخرية؛ كم جميلة هي بأكبر كذباتها، حين نقطع الوعود والعهود معاً حتّى آخر العمر!

كم من نهاية ولدت قبل البداية! وكم من وداع كان قبل طقوس اللّقاء!

كم من ليلةٍ قضيناها نندب لحظة أن عرفناهم؛ حتى لو أنّ أعيننا لم ترَهُمْ.

كم من خيبةٍ تجرّعنا مرارتها؛ وقد كان ذنبنا أنّنا أحد نزواتهم العابرة.

هل كان سعد كذلك؟؟ وتلك المسكينة؛ أما زالت تلملم دموع ألمها كلّ مساء!

(5)

الأوّل من إبريل، جلس سعد يحضّر حقائبه للسّفر؛ سفر طويل قد يكون بلا رجعة. وجلست ريم تكذّب كلّ ظنونها، علّها تكون كذبة نيسان الكبرى! علّه كابوسٌ يراود أجمل أحلامها، أو لعلّها واهمة؛ باتت الشكوك تقتلها!

غرقت في أفكارها؛ حينها رسمت بيتاً جميلاً يحضنها، وطفلاً صغيراً يداعب يدها، وكان سعد يحتضن رأسها؛ وبلطفٍ يداعب شعرها.

- وداعاً ريم!

كمن طُعن بمئةِ سيفٍ كادت الكلمات تختفي من حنجرتها

- وداعاً!

سلامٌ بارد من كليهما، وكأنّه ينتظر الفراق منذ اللّحظة الأولى!

أمّا هي؛ فقد كان ردّها نكراناً لواقعٍ قد أجبرت على معايشته، نعم رحل سعد الآن من حياة ريم.

ببساطة قلب عالمها رأساً على عقِب؛ ثـمّ رحـل! دون أيّ أعذار أو حتى مبرّرات، أتراها تعود يوماً لنفسها؟ أم أنّ أجمـل مـا كان يزيّنها قد رحل مع قلبٍ من أحبّت. ذاك المتمـرّد سـرق قلبهـا دون إذنها، فراق موجع؛ لقلبين، روحين، لطفلين؛ اجتمعـا طوعـاً وعلى غير العادة؛ تاهـت دروبهمـا، ليمـسيا في شـرقٍ وغـرب لا يلتقيان!!

كم تفرحنا ألوان قـوس قـزح في الأجـواء، بعـد كـلّ شـتاءٍ قاسٍ؛ تتزيّن السماء بأبهى الألـوان، ترتـدي الأرض ثوبـاً أخـضرَ جميلاً، تتراقص الفراشات على الزّهور؛ وتزقـزق العـصافير معلنـةً الصباح! باختصار؛ تعود الحياة لكلّ شيء.

لكن، حـين تنطفـئ نجمـةٌ مـا في الـسّماء؛ فإنّهـا لـن تعـود، وسنفقد بريقها، لكننا حتماً سـنعتاد؛ وستُنـسى تلـك الّـتي أنـارت دروبنا كلّ مساء!

من أنت الآن يا ريم؟

أتكونين الرّبيع، أم أنـك طيـفٌ لكوكـبٍ مـضيء؛ كـان قـد اندثر!!

رسائل ريم...

رسالة رقم (1) ....

تتشابه الأيّام، وتمرّ الدقائق كما الساعات. أستيقظ صباحاً؛ أشرب فنجان قهوتي وأستمع إلى موسيقاي المعتادة، كاظم الذي بات حائراً في "دروب الألم"، يفعل أي شيء لمراضاة عشيقته في "ها حبيبي"، كلماتي المفضّلة؛ تلك التي تنقلني من مقعدي؛ إلى جنّات خضراء، وسماء واسعة زرقاء!

استنشق رائحة الورود من حولي؛ وأشعر بالنسيم يداعب شعري.

أبيت غارقةً بين أحاسيسه وابتساماتي. ما إن ينتهي؛ حتى أستيقظ على من حولي، لا أشعر بهم كثيراً؛ فعالمي لي وحدي!

أتدري؟ من يوم رحيلك؛ قطعت على نفسي عهداً، واليوم بدأت بتنفيذه، سأكتب لك حروفاً على أوراق؛ مشاعر وأحاسيس، قد لا أقوى على قولها.

أتراكَ تحبّ القراءة يا سعد؟! أم أنّ رسائلي ستغدو طيّ النسيان! هل ستكون متلهّفاً؛ في كلّ مرة تلمح فيها ظرفاً منقوشاً بحروف اسمي!

من جهتي؛ لن أملّ الكتابة. فهي أنفاسي التي أحيا بها. حين أكتب؛ أزيح ثقلاً كبيراً عن صدري؛ حين أكتب أزرع في داخلي بذرة من أمل أسقيها حين تلامس أحلامي الغيوم! حين يعجز عنّي الواقع، أهرب هنا؛ سأهرب من نفسي إليك أنت، علّك يوماً تهرب منك إليّ!!

ريم........

مسكينةٌ أنتِ، لن تُقرأ يوماً رسائلكِ؛ ستهدرين مشاعر دون مقابل، ستُخذلين وما أصعبه من شعور؛ حين ترسمين أملاً كبيراً ويتلاشى منكِ أمام عينيك. حزينةٌ أنا عليك يا ريم، لو كان حقّاً يريدك؛ لما ابتعد عنك!

متناقضةٌ كما حروفك، هل حقّاً ستهرُبين إلى أوراق صمّاء؟ أين صوتكِ يا ريم! لمَ لا تصرخين كلّ آهات صدرك؛ المخنوق بصمتك؟! أهو القلم من سينصفك! وإن جفّ قلمكِ يوماً؛ إلى من ستلجئين!؟

رسالة رقم (2) ....

اليوم جلست قُرب البحر، كم بدا لي كبيييراً!

كان القمر يزيّن السّماء؛ والنجوم تنير بضياء. الجوّ باردٌ جدّاً، والأمواج المتلاطمة على الشاطيء؛ كمن يُحارب للبقاء!

شكيت للّيل عنك؛ وعتبَ البحر عليك. كيف ذهبت هكذا؛ دون أن نتّفق أو نختلف؟ رحلتَ دون أن تسألني؛ إن كنت أريد الرّحيل معك! لم لا؛ فأنا أحبّ السّفر!

ماذا تفعل الآن؟ هل تنام باكراً، أم أنّ النّوم هجركَ كما هجرني!

هل أحببت منزلك الجديد؟ ألا تشتاق إلى دفء بيتنا ؟! قد تبدو لكَ جُرأتي على الورق كبيرة؛ لكنّي أحاول أن أخُطّ ما عجز عن قوله لساني.

سأخبرك سرّاً، لم أذهب إلى البحر؛ لكنّ مخيلتي سافرت بي إلى جزيرةٍ بعيدة. كانت صغيرة وجميلة جدّاً، والأهم أنها هادئة.

أتمنى أن أزورها يوماً أنا وأنت!

ريم......

ما أجمل الهدوء والسكون؛ حين تغرق مع نفسك، وترسم عالماً جميلاً من حولك!

على الجدران البيضاء؛ ترسم ملامحهم، وموسيقى اللّيل تعزف لك أعذب كلماتهم.

حينها يبدأ نهر الذكريات بالجريان؛ ولا سلطة لك بإيقافه، يبدأ بذكرى سعيدة، تجرّ وراءها أمواجاً غاضبة؛ تحجب شمس سعادتك!

إنّنا نحتاج فقط جرعةً من هدوءٍ وصمت؛ لكّل ضجيجٍ يدور في دواخلنا.

نحتاج أن نصرخ؛ لنُسمع كلّ العالم صوتنا.

نحتاج فقط إلى من يحتضن كلماتنا!!

رسالة رقم (3) ......

سعد .....!

أتذكر يوم خرجنا سويّاً أنا وأنـت؟ كـان يومـاً لم يُمحَ مـن ذاكرتي إلى الآن. لا أدري إن كان حقيقـةً أم كـان سـراباً!! لكنّـي كنت في أشدّ لحظاتي سعادة، شـيءٌ مـا أفـرح نـبض قلـبي؛ وأزاح غيمةً سوداءَ من أجوائي.

كانت كلماتك حينها بسيطة جدّاً، وحوارك كـان أنيقـاً حـدّ العجب!

حروفك منتقـاة بإتقـان؛ عزفـت علـى أوتـار حزنـي، أشـدّ الألحان وأصعبها! لكنّك كنـت ذكيـاً، تعلـم جيّـداً أيـن سـتوقف حوارك معي.

ذاك القمر، من شهد يوماً حديثنا؛ يعاتبني اليومَ بـك! كيـف كنت حمقاءَ لأواجهك بحقيقةٍ لم تقنعني!

أتصدّق حقّاً أنّي لا أنخدع بالمظـاهر الكاذبـة، مخطـيء أنـت؛ فأنا أشدّ الحمقى سباتاً في الوهم!!

ريم........

نسيت نفسها، وحلّقت فوق الغيوم بأحلامها!!!

اعتقدت أن طيبة قلبها وبراءتها، ستكون كفيلةً بحياةٍ سعيدةٍ لتعيشها.

عاملت كلّ من حولها كطفلةٍ هادئة؛ لا تكلّ ولا تملّ، تبتسم في وجه كلّ من يقابلها؛ وكأنّ شيئاً لم يكن.

في كلّ مرّة، تكسر مرآة أحلامها أبشع كوابيسها!

في كلّ مرّة، وحين تكون السّعادة قد غمرت أيّامها؛ طعنةٌ بالخُذلانِ تُدميها، وتعاسة حظٍّ تناستها؛ تعود لسكبِ مرارتها في طريق أوهامها!!

رسالة رقم (4) ......

التقيت أختك صدفةً اليوم يا سعد، فرحت جداً بلقاء روحٍ تشبهك؛ وملامح أقرب ما تكون إليك.

تحدثنا قليلاً، سألتها عن أحوالك؛ أخبرتني أنك بخير وأنّ عملك يسير على ما يرام!

لا أعلم بمَ أحسست، لكنّ شيئاً ما بداخلي؛ شعر أنّ سرّاً عميقاً بعينيها أخفته عنّي!!

كذّبَت أحاسيسي؛ واستأذنتني الرّحيل مسرعة، كان ارتباكها لسؤالٍ بريئ منّي؛ تُرى، ماذا يأكل سعد؟، هي تعلم كما أعرف أنا، أنّك لا تحب الطّعام الجاهز؛ تحبّ فقط أن تأكل الطّعام البيتي، كما وأنّك لا تعرف الطهو !!

من يطهو لكَ الآن يا سعد!!!

من يعرف ذوقكَ في الطّعام؟ ولِمَ لم تُجبني شقيقتك التي عهدتها أعزّ صديقةٍ على سؤالي!!

هل أخافها شوقي إليـك مـن أن تفجعـني بخـبرٍ قـد لا يـسرّ مسمعي؟!!

هل سافرت إلى حبٍّ قديمٍ يا سعد!

هـل عـاد ماضـيك ليـسرقك منّـي؛ بعـد أن حـذفت كـلّ صفحات الماضي لأجلك!!

هل كان قلبك من البداية لغيري!!

ام أنّ ظنوني واهمة،كاذبة!

أتدري،

قلبي لا يُخطيء؛ وسـتعلم يومـاً كـم كنـت صـادقةً في كـلّ شيء!!

ريم......

انقضى فصل الشّتاء، مغلقاً معه أبواب الشّوق والحنين لكلّ ماضٍ هجرنا.

رحل الشّتاء؛ حاملاً معه كلّ دمعةٍ ذرفناها بعد رحيلهم.

ذهب فصل الحبّ والحنين؛ وذهبت كلّ آمالنا معه!

ذهب دفء الحطب وصقيع الثّلوج، ودّعنا فصلاً آخر من فصول العشّاق.

ودّعنا فصل الأمطار التي لا تملّ طرق نوافذنا صباح مساء!

ومع بداية فصل الربيع، تفترش الأرض بأبهى الألوان، أشجار خضراء، أزهارٌ بأجمل الأشكال وأطيب الروائح، والأجمل من كلّ هذا؛ قوس المطر، ذاك الذي يزيّن السماء بسبعةِ ألوانٍ مختلفة، عفوية، متناقضة، تجتمع معاً، لتحبس الأنفاس لثوانٍ معدودات!

نغمض أعيننا ونطير بعيداً، نستنشق عبير تلك الحريّة التي حملتنا إلى أقصى المجرّات!

فصل الرّبيع، هو فصل الأمل، التفاؤل، والإيمان بأن كلّ شيء سيغدو أفضل، وأنّ جميع أحلامنا سيجسّدها الواقع؛ ربّما يوماً ما!!

رسالة رقم (5)..........

عزيزي سعد؛

يوماً ما كنت أؤمن بالنهايات السّعيدة. كان الأمل شمعةً تنير طريقي، وكان الخيال درباً بلا نهاية بالنّسبةِ لي!

كنت على يقينٍ بأن نهاية قوس قزح؛ جرّةٌ مليئة بالأحلام تنتظرنا، ما إن نلمحها ونغمض أعيننا حتى تتحقّق جميع أمانينا!

كلّ مستحيل؛ وكلّ ممكن، كلّ عقدة؛ وكلّ حل!

كنت أؤمن بالمعجزات؛ وكنت أؤمن بالحب، آاااهٍ يا سعد؛ كم كنت متمسّكةً بعقيدتي.

كان الحبّ المعجزة الخالدة بالنّسبة لي؛ وكأنه المفتاح الوحيد لأغلظ الأبواب!

كم كنتُ حمقاء حين آمنت بقدرتي على زرع بذرةِ حبٍّ بقلبك؛ أسقيها بقربي، تفهّمي، وتضحيتي لأجلك!

كم كنت حمقاء؛ فقد قتلت كلّ جميلٍ كان بداخلي.

كما الصّحراء جفّت مشاعري؛ وذاك الذي ينبض يساري، ما عاد يهوى شيئاً!

صدقاً إنّي أريد الهدوء فقط؛ ولا شيء آخر.

تعبت أنا؛ وضجيج أفكاري أنهكني!!

هنيئاً لكَ بغربتك، هنيئاً لكَ بحبِّك، هنيئاً لكَ بأنانيتك!!

مع تعبي، وجعي

ريم

رسالة رقم (6)..........

مرّ الآن عامٌ على رحيلك؛ لم يصلني منك شيء،

ولم أعرف عنك شيئاً!!!

يبدو أنّني الوحيدة التي توقّف الزّمن عندها.

سأخبرك بشيء، بهذه الحروف سأخطّ آخر رسائلي؛ سألملم نفسي لأقف من جديد.

لا عتب عليّ؛ فقد انتظرت كثيراً، وظلمت نفسي كثيراً.

كان انتظارك كانتظار شمسِ آذار الكاذبة؛ كان انتظاراً لخيبةٍ أخرى، وهمٍ آخر، ونسيانٍ أخير !!

ها هنا بدأنا، وها هنا ستنتهي آخر فصولنا!

لا أريد شيئاً، فقط شكراً ومن كلّ قلبي.

وداعاً سعد

ريم

رسائل سعد ....

رسالة رقم (1)..............

أمّي الحبيبة، كم أشتاق لحضنك الدافيء، همساتك العذبة، ولمسةٍ ليديك على رأسي قبل النّوم.

افتقدك جدّاً، أفتقد أختي، بيتي، سريري، وسادتي، أفتقد نفسي يا أمّي!

أفتقد روحاً كادت أن تخطفني؛ تقتلني وتعذّبني!

لا تستغربي فقد اشتقت إليها أيضاً، على الرغم من سفري إلى حياتي القديمة، طفلتي؛ تلك الخطيئةُ التي لن تسامحيني عليها يوماً يا جنّتي.

أفتقد براءة عينيها، حزنها العميق، ابتسامتها العذبة، خوفها وضعفها، أفتقد ريم يا أمّي!!

على الرّغم من هروبي منها، وابتعادي عنها؛ الّا أنني أحتاج قربها الآن، رائحتها، حبّها!!

أحبّك أمّي

سعد

رسالة رقم (2).........

أمّي؛ يا نبض قلبي، رزقت اليوم بطفلتي!!

اليوم كانت ولادة "ريم"، ما أصغرها، وما أروع شعوري وأنا أحتضنها!!

أضمّها إلى صدري، وأستنشق عبيرها، كالوردة هي؛ ناعمة جداً ورقيقة كما النّسيم.

اتعلمين؛ ستسدّ ابنتي "ريم" فراغاً كبيراً بداخلي، سأنسى معها ألماً يلازمني مذ فقدت أخي.

ستُنسيني عذاباً حملته منذ أن تركت وراء ظهري حياةً جديدة استقبلتني بكلّ عيوبي، أنانيتي، جهلي!

في كلّ مرّةٍ أنظر بها إلى عينيّ ابنتي، أرى ريم أمامي، مهزوزة الأحلام، مكسورة الأمل، ودامعة العينين!! أضمّ ابنتي؛ لعلّي بقربها أسدّ حاجةً في تخفيف وجعي.

لا تنسيني أمّي، راسليني بأقرب فرصة.

مع حبّي

سعد

رسالة رقم (3) ....

جنّتي على الأرض؛ غاليتي، أما زال قلبك غاضباً عليّ!

سامحيني أرجوكِ؛ فما عدت أقوى على التحمّل، هجرك لي موجعٌ جدّاً؛ لا أطيقه يا طيفاً يسكن أيّامي!

بوحي بغضبك، حزنك، ألمك، اقتليني بصراخك؛ لكن أرجوكِ ألّا تصمتي!!

أمّي، أبكيك شوقاً كلّ ليلةٍ في منامي، أنهكتني الغربة يا مهجتي، دلّيني لطريقٍ يرضيكِ، دعيني أهتدِ الى سبيلك!!

آااااهٍ يا حضني، تعبت كثيراً؛ وأمسيت كعجوزٍ مستندٍ إلى عكّازه الخشبيّ الذي ما عاد يقوى على حمله.

أمدّ يدي إليك، علّك تنتشليني من ضياعي!

سعد

على المقعد الخشبيّ المعتاد؛ وفي نفس الحديقـة، أجلـس الآن وشريط ثلاث سنين مضت؛ يمرّ بسرعة الضّوء أمام عينيّ!

لم أعتد هذه البرودة، لطالما كنت أنعـمُ بالـدّفء علـى نفـس المقعـد؛ والـشّمس بأشـعّتها تلفـح وجهـي، ونـسيم عليـل يـشرح صدري، ووجهه المشرق لا يفارقني!

لطالما كان غامضاً بنظـري؛ منـذ اللّحظـة الأولى الّـتي تقـدّم لخطبتي بها. قسوته تلـك، كـان يختبـئ وراءهـا حـزنٌ قـديم؛ منـذ طفولته جرحٌ عميقٌ أخفاه عنّي!!

السّاعة الآن الخامسة، كان من المقرّر أن تـصل طائرتـه قبـل ساعة؛ عرفت ذلك من أختـه. أخـبرتني أنـه عائـد اليـوم؛ لظـرفٍ طارئ لم يعلمهم بأمره. أقلقتني حجّته تلك كثيراً!!

منذ عامين؛ توقّفت عن الكتابة لسعد، جفّ قلمـي وتاهـت بين بحور الصّمت كلماتي، حتّى حروفي؛ تلك التي اعتنقتها مـذهباً يريح اختناقي؛ خذلتني به!

في هذه اللّحظة، سأعلن النهاية؛ نهاية سعد من حياتي، كنت آخر خيط أملٍ أتمسّك به؛ وبدلاً من أن تنتشلني، أغرقتني في الظّلام أكثر!

أعلن انسحابي من هذه التمثيلية، أعلن انسحابي؛ وسأعود لنفسي، نفسي فقط!!!

صـــــديقة!!

(6)

مممممممم، ماذا سأقول لكم عن ريم؟!!!

تتلعثم كلماتها، ويحمرّ وجهها خجلاً إن نظر إليها أحدهم؛ فما بالكم إن اقترب ليتحدّث معها!

بالمناسبة، اسمي فرح؛ صديقة ريم المقرّبة.

طيّبة القلب، تكره الكذب والخداع، تحبّ جميع النّاس، تُعامل كلّ من يقابلها بصفاء. براءتها تلك جعلتها، ضعيفة، هشّة، رقيقة؛ يبكيها أيّ شيء ويخذل سعادتها كلّ شيء!! باختصار تلك هي ريم.

وإن كنت سأسرد التّفاصيل، فكلامي سيطول؛ لذا دعوني أبدأ بيوم لقائنا الأوّل!

على مقاعد دراستنا الجامعية؛ جمعتنا الصّدفة. كنت في السّنة الأولى وكانت ريم كذلك.

كطفلةٍ تحبس نفسها وراء ألفِ سورٍ من العزلة! النّاظر إليها لأوّل مرّة، يعتقد أنّها متعجرفة، تعشق نفسها، لا تحبّ الاختلاط بأحد، أو مساعدة أحد!

لكن.......

من يستطيع الوصول إلى عالمها؛ يجد أنّها حقّاً طفلة، بكلّ ما في قلوب الأطفال من براءة ونقاء، لا تعرف الكراهية أبداً؛ لكنّها تخشى الغرباء!!

جلستُ إلى المِقعد المُجاور لها، نظرَت إليّ؛ ابتسمت وأدارت وجهها، قلت في ذهني؛ فتاةٌ متعجرفة، أكرهك!!

وكأنّ القدر يأبى إلّا أن يجمعني بها، في كلّ مكانٍ أذهب إليه أراها!

يا للعجب!! إنّها ترافقني في كلّ محاضراتي، إذاً لا مفرّ منكِ أيّتها المدلّلة؛ سأحاول معكِ مرّةً أخرى!

اقتربت منها لأسلّم عليها،

- فرح: مرحباً.

- ريم: أهلاً.

- اسمي فرح؛ طالبة في السنةِ الأولى، وأنتِ؟

- أهلاً فرح، أنا ريم؛ طالبة في السّنة الأولى أيضاً.

- ريم!! اسمك جميل.

- أشكر لطفك يا فرح؛ ولكِ من ذات الجمال نصيب.

- يبدو أننا سنلتقي في معظم محاضراتنا، هل سبقَ وأن تعرفتِ إلى أحدهم هنا؟

- لا، ليس بعد؛ ما زلت أحاول التأقلم.

- إذاً، ما رأيك أن نصبح أصدقاء؛ لنبقى معاً معظم الأوقات!

- لا مانع لديّ؛ ان كنتِ أنت تريدين ذلك.

- اتّفقنا إذاً.

بعد انتهاء الوقت المخصّص لمحاضرتنا الأخيرة، عرضت على ريم أخذها لتتعرّف على صديقتين لي؛ رافقتاني أيّام دراستي الثّانوية، لم تمانع؛ تلك الفتاة مطيعةٌ جدّاً، وقد أحببت ذلكِ.

- ريم، أعرّفك:

هذه سلمى، وتلك منى؛ كانتا معي في المدرسة الثّانوية، وها نحن اليوم نرتاد ذات الجامعة.

- أهلاً سلمى، أهلاً منى؛ أنا ريم، صديقة جديدة لـ"فرح"!

كنتُ أتابع كلّ تفاصيلها، كانت ابتسامتها صادقةً جداً وعفوية؛ لم تتحدّث كثيراً، اكتفت بالإجابة على بعض أسئلتنا.

جلست مع صديقتيّ، نُعيد ذكرى أيّام مضت، نتذكّر مقالبنا، ضحكاتنا، أسرارنا، ونظرات لا يعلمها سوانا، فجأة؛ نظرت قربي ولم أجد ريم!! أين ذهبت؟؟

رفعت نظري لأجدها تجلس وحدها، كانت شريدة الأفكار؛ وكأنّها في عالمٍ آخر، أبعد ما يكون عنّا!

اقتربت منها،

- ريم ...ريم ...هييييي ريم!! (التفتت إليّ)، ماذا حصل؟ بماذا تفكّرين؟؟

كانت ابتسامتها كاذبة؛ حين قالت لي:

- لا شيء! فقط أريد أن أعود إلى البيت.

- حسناً ريم، كما تريدين؛ هيّا بنا.

أذكر أنّها بقيت على حالتها تلك، تصارع أفكارها؛ طوال طريق عودتنا!

- هيييي، ريم؛ ما بالك؟ من مدّة وشيء ما يشغلك! هل أنت منزعجة؟ أم أنّ هناك من يستحوذ على فكرك!!

أتذكّر نظرتها في تلك اللّحظة، فقد بعثرتني، وكأنّها تلومني، وكأنّها تستنكر سؤالي! وكأنّني وضعت يدي على جرحٍ لم يبرأ! لكن، ما جعلني أتساءل باستغراب؛ أنّها ابتسمت لي ابتسامةً غريبة، وكأنّني أعرف الجواب لسؤالي، قبل أن أنطق به!!

غريبة أنتِ يا صديقتي!!!

*****

مضت الآن سنتان على دخولي الجامعة، وما زالت ريم كما عرفتها؛ تلك الهادئة، المنطوية داخل عالمها الخاص.

في أحد الصباحات، وبينما كنت جالسةً معها؛ رأيتها شاردة، تبحث بين الوجوه، وكأنّها أضاعت شيئاً ما؛ الخوف بادٍ على ملامحها!

- ريم، عزيزتي ما بكِ؟

اقتربت منّي وهمست:

- ذاك الشّاب هناك، لا أنفكّ أراه في كلّ مكان أذهب إليه؛ أنا خائفة!

أذكر أنّ ضحكاتي أزعجت ريم حين قلت لها:

- حمقاء!! يبدو أنّه معجبٌ بكِ؛ ويريد محادثتك!

اعتلت الدّهشة وجهها، نظرت إليّ ولم تنطق بشيء!

هل يحزن أحدكم إنّ علم أنّ هناك من يهتمّ حقّاً لأمره! أليست فرحتنا الكبرى أن نجد من يشاركنا أفراحنا، ضحكاتنا، لحظات جنوننا! مرّة أخرى، غريبة أنت يا ريم!!

في محاولة مني لكسر صمتها ودهشتها، أخبرتها:

- لا تخافي يا ريم،ما دمت معك؛ لن يستطيع أيّ أحد أن يؤذيك!

وأخيراً رأيتها تبتسم؛ ابتسامة مطمئنة وقد ارتاح بالها. لحظتها فقط أدركت؛ كم هي بريئة كالأطفال، وللمرّة الأولى أراها سعيدة!

في اليوم التالي، أصبحت كالمرافق الشخصيّ لصديقتي المدلّلة، أرافقها الى كلّ مكان، حتى اعتاد الجميع على رؤيتنا معاً؛ لا نفترق أبداً !!

*****

جاء خبر سفري كصاعقةٍ على مسمع ريم، كانت تبكي بحرارة، وقد لامتني كثيراً؛ كيف سأتركها في آخر سنةٍ لنا معاً!

لم يكن بيدي حيلة، فقد كنت مجبرةً على مجاراة أهلي؛ كما وأنّي لن أضيع فرصة إكمال دراستي في الخارج. أذكر بحّة صوتها حين سألتني:

-كيف سأبقى هنا وحدي؛ وقد اعتدت وجودك؟ كيف ستتركينني لأواجه كلّ شيء بدونك؛ وكيف سأتدبّر أمري؟!

آآآاهٍ على تلك الأيّام يا صديقتي،

أربع سنوات مضت دون أن أعلم عنكِ شيئاً، وها أنا لا يفصلني عنك؛ سوى العودة والسؤال، سأبحث حتى أجدك ولن أملّ أبداً.

(7)

رنّ هاتف ريم في الصباح، وبعد عدّة مكالمات؛ أمسكت هاتفها وردّت:

- مرحباً !

- مرحباً، ريم!

- نعم!!

- كيف حالك يا ريم؟

- أنا بخير؛ أشكر لطفك، عفواً من معي؟

- ريم ..أنا فرح.

- فرح!!!

- نعم يا ريم، فرح؛ صديقة أيّام الجامعة.

- حقّاً!! أنت فرح، لقد اشتقت إليكِ. أين أنت الآن؟ هل عدت أم أنكِ ..

- هييييي ريم، اصبري؛ وأنا اشتقت لكِ، وأريد أن ألتقيك.

- حسناً حسناً، ما رأيك بعد ساعة؛ في مكاننا المعتاد!!

- حسناً ريم، بعد ساعة أراكِ هناك.

جلست ريم تنتظر فرح؛ بعد أن وصلت قبل موعدهما بنصف ساعة. وصلت فرح، الدّهشة تعلو ملامح كلتيهما، لكنّ دمعةً تسلّلت من عين ريم؛ كسرت حاجز الذّهول، وجعلتها تضمّ فرح وتبكي!

- ريم عزيزتي، ما بكِ؟ لماذا أنت حزينة؟
- لا شيء، أخبريني أنت؛ كيف كان سفرك؟
- لن أخبرك بشيء، قبل أن أعرف سبب حزنك!
- أرجوك فرح، لست بقادرةٍ على الكلام، ولن يكون كلّ شيء بخير كما أخبرتني يوماً، لا جمال في هذا العالم؛ والكلّ متشابهون!
- اهدئي عزيزتي، ما الذي حدث معكِ؟
- لماذا رحلت فرح؟ لو أنّك بقيت بقربي؛ لما حدث شيء! لم أكن سأسير وراء جنوني وتسرّعي، لم أكن سأصدّق تلك الأكاذيب؛ لم أكن لأنقاد وراء حلمٍ مستحيلٍ كمثله!!
- ريم، صديقة عمري وأيّامي؛ يا طفلةً بريئة!

- لقد كبرت ألفَ عامٍ أخرى يا فرح، بعد أن كان في قلبي مثقال ذرّة أملٍ بالحب؛ ما عدت أؤمن به أبداً، وبدلاً من أن تتبدّل مخاوفي ثقة، خسرت ثقتي بنفسي قبل كلّ شيء، أنا سيّئة يا فرح، سيّئةٌ جدّاً!

- حسناً ريم، يبدو أنّ قصّتك معقّدة، هلّا تخبريني أرجوك؛ من فعل بك كلّ هذا؟!

- لا ألومه فرح، فأنا كنت أعلم دوماً بأنّني غير صالحةٍ للحبّ. لن يفهمني أحد، ولن أكون يوماً كما يريد؛ تلك الفتاة بأحلامها الجميلة، من تملأ حياته فرحاً وسرور. لن أكون يوماً دواءً لوجعه، فقلبي لا يصلح. كان خيبةً قاضية؛ لأعلن إغلاق جميع الأبواب على نفسي، لا أريد شيئاً من أحد، لا أريد شيئاً قريباً من آدم؛ خائفةٌ أنا يا فرح!!

- لم تتغيّري أبداً يا ريم، ما زلتِ كما عهدتك؛ تؤثرين الصّمت، وتتهرّبين من الأجوبة المباشرة، تغرقيني بين حروفك؛ بدوّامة أفكارٍ لا تنتهي!

- اسمه سعد !!

- ماذا؟

- تقدّم لخطبتي بعد أن أنهيت دراستي الجامعية، وكم كنت سعيدةً يا فرح؛ إذ اعتقدت واهمةً أنّ هناك من يهتم حقّاً لأمري، ويريدني على الرغم من سيئاتي!!

- ريم .....

- كنت أريد أن أنسى يا صديقتي،وددت لو أنّي بقربه؛ أدفن كلّ ماضٍ آلمني. أن أعود طفلةً من جديد، ألّا أخاف أبداً، أن أبدأ حياتي بقلبٍ صافٍ؛ لا يشكو شيئاً، لكن ..!

- لكن ماذا يا ريم؟ أخبريني!

- لكنّه رحل يا صديقتي، ذهب دون أسباب؛ أو حتى أعذار، رحل بلا سابق إنذار؛ لم نتّفق ولم نختلف! لم يحدث بيننا شيء، لقد كان مجرّد كذبةٍ عابرة!

"صمتت ريم ومثلها فرح"

- فرح، هل تساعدينني؟

- أساعدك يا ريم، اطلبي أيّ شيء؛ وسأكون معك!!

- أنت لاتكذبين؛ أليس كذلك؟!

- لا عزيزتي، لا تقلقي!

- أحبّك فرح!

(8)

نستطيع البدء من جديد؛ حين تموت في داخلنا النهايات، وإن نحن علقنا بدوّامة الماضي ولم نشفَ، فلا يحقّ لنا الحديث عن البدايات الجديدة!!

- فرح!! لن أستطيع أن أستمرّ على هذا النحو!

- ما بكِ ريم؟!

- لقد مللت، تتشابه مكاتب التّوظيف؛وإعلانات الشّركات للباحثين عن عمل بلا فائدة، ماذا سأفعل الآن؟ يبدو أنّ الأمر لن يكون سهلاً؛ لست قويّة كما تعتقدين.

- ريم، أنت قويّة؛ لكنّك لا تعلمين، سوف تستطيعين الوقوف وحدك للبدء من جديد.

- لا لا فرح، أنت مخطئة. ما عدت أقوى على شيء؛ وأنا الآن وحدي!

- ريم صديقتي، أنا معك!

- أنت تكذبين، لقد تركتني مرّة، ستنسين وعودك لي؛ وسترحلين من جديد. أنتِ مثله؛ ان كان يريد الرّحيل، لماذا اختارني أنا؟!

- حسناً ريم، هل لنا أن نلتقي؟

- فرح.....

كيف لنا أن نكون سعداء يا صديقتي، أخبريني؛ كيف لتلك الإبتسامة القدرة على تغيير ملامحنا المشوّهة! كيف ننسى فرح؟ أيمكن ذلك؟ هل ستعود ضحكتي؟ وهل سأعود إلى تزيين أحلامي البائسة من جديد؟ من سيجيب تساؤلاتي؟!

- ريم عزيزتي، أنت في المنزل أليس كذلك؟ هل لي بزيارتك؟

- فرح......

أطبق الصّمت، ريم لم تُجب؛ وبقت فرح صامتةً تنتظر ردّاً! تُرى؛ ما الذي حدث في تلك اللّحظة!!

يبدو أنّ ريم قد وصلت إلى النهاية، ولم تعد تبالي لأيّ شيء!

هل نحن حقّاً قادرين على النّسيان والمسامحة؟ هل لنا أن نعود إلى ماضينا؛ حتى وإن كانت تجربتنا معه سيّئة؟ هل نستطيع البدء من جديد بقلوبٍ صافية؟!!

حلـم أم واقـع ..!!

(9)

فتحت عينيّ، المكان بارد؛ رائحة الأدوية تخنقني، الأطبّاء يحيطون بي؛ ماذا يجري هنا!!!

- هل أنت بخير؟

- المكان بارد.

- لا تقلقي، سنرفع درجة الحرارة؛ بماذا تشعرين؟

- رأسي يؤلمني قليلاً، وأشعر بالدوّار.

- لا بأس، إنّه أمرٌ عاديّ بعد ما حدث.

- أريد أن أنام، هل لكم أن تتركوني الآن؟

- نعم بالطّبع، سنخرج حالاً!

حسناً، ها هم قد خرجوا. ماذا يحدث هنا؟ ولم أنا على سريرٍ أبيض بارد في قسم العناية وحدي؟ مالذي يجري؟ أكره الأطبّاء، أكره كلّ شيءٍ يتعلّق بهم!!

لا بدّ لي من النّوم، لعلّني أستيقظ من هذا الكابوس!

- لقد مضى على نومها ما يقارب الخمسُ ساعات، أيّها الطّبيب؛ هل يعني ذلك أنّها عادت إلى حالة الغيبوبة تلك!!

- لا أعتقد ذلك، سننتظر قليلاً . أيتها الممرّضة؛ أوقفي (المنوّم) عنها!

عاد الضّوء إلى عينيّ، أووووف. ما زال الطّبيب هنا؛ ماذا سأفعل الآن!

- صباح الخير ريم!

- صباح الخير أيّها الطّبيب.

- هل تشعرين بتحسّن؟

- لا أستطيع أن أجزم، لكن ما يستحقّ السؤال: لماذا أنا هنا؟ ما الذي حدث!

"بعد صمت، أجاب الطّبيب"

- ريم، هذه مساعدتي (الطّبيبة) فرح، وسوف تخبرك بكلّ ما تودّين معرفته!

لم تستطع ريم اخفاء كراهيتها للأطبّاء في تلك اللّحظة، لكن؛ ما كانت تجهله ريم، أنّ الطّبيبة "فرح" ما هي الّا صديقتها المقرّبة فرح!! فما الذي حدث؛ لتتحوّل فجأة إلى طبيبة؟!!!

- مرحباً ريم، أنا الطبيبة فرح؛ أتذكرينني؟

- بالطّبع أذكرك! من دقيقةٍ فقط تعرّفت إليك؛ وهل سأنسى بتلك السّرعة!!

- حسناً، بماذا تشعرين الآن؟

- أريد جواباً لا أكثر؛ لماذا أنا هنا؟

- لقد كنتِ تعانين التّعب والإرهاق، وتشعرين بالدّوار، لذلك بقيت هنا.

- الآن أنا بخير، هل أستطيع الخروج من هنا!

- ليس بهذه السّرعة ريم، فما زال أمامنا بعض الفحوص الروتينية.

- لن أصبر كثيراً.

- سأتركك لترتاحي.

- شكراً.

ألم رأسي يكاد أن يقتلني، غـصّة في صـدري تخـنقني، شـعور غريب يتملّكني، أشعر بالفراغ؛ وكأنّ حياتي لم تكن قبل اليوم، ماذا يحدث لي!!

بدأ الضوء يتلاشى من جديد، الممرضة تصرخ:

- أيّها الطبيب بسرعة، إنّ حالتها تتدهور.

(10)

وهكـذا تكـون النّهايـة؛ نهايـة ريـم، تلـك الجميلـة بعينيهـا الحزينتين، وشعرها الأسود القصير، هكذا انتهت أحلامها؛ وذبلت أجمل حكاياها. باتت ذكرى يَبكيها الأصدقاء، وتحترق عليها قلوب الأحبّاء . رحلت وتركت خلفها بصمةً لن تُمحى بسهولة، فلطالما كانت فتاةً يعشقُها كلّ من يعرفها.

لماذا استسلمتِ هكذا يا ريـم؟ لمـاذا لم تحـاولي أن تتمـسّكي بخيطِ أمل؟ القادم أجمل صدّقيني؛ القادم سيحمل لكِ المفاجآت!!

كيف هانت عليكِ دموع والدتك؟ تلك الطّيبة ذات القلـب الحنون، من رأتكِ تكبرين أمام عينيها كلّ يوم، مـن سـهرت علـى راحتك، وملأها الشّوق لتراكِ تسيرين أولى خطواتك!!

كيف رحلتِ دون وداع فرح؛ صديقتك المفضّلة، من قضيتِ معها أوقات حزنك قبل فرحك، من كانت على استعدادٍ أن تفعل أيّ شيءٍ لأجلك.

إلى أين ذهبتِ، وكيف ستختفين هكذا دون سابق إنذار !

كيف لكِ أن تتخلّي عن أبسط حقوق سعادتك؟ حتّى في رحيلك أنتِ وحيدة يا ريم!

ستفتقد إليك غرفتك، سريرك، دميتك المفضّلة، مرآتك؛ من شهدت أقسى لحظات بكائك، وعشقت كلّ تفاصيلك. أنتِ أيضاً رحلتِ بلا مبرّرات!!

ضعيفةٌ أنتِ ولن تتغيّري، استسلمتِ بكلّ برود وبقيت أسيرة قيودِ اجتاحتك. أهذه هي النّهاية التي تريدينها؛ ضعيفة، هزيلة، مستسلمة!!

أحقاً هي هكذا ؟

أحبّها ولا أستحقها!!

منذ ثلاثة أشهر؛ استجمعت كلّ قوتي، أمسكت هاتفي وطلبت رقمها. لا أعلم كيف يمكنني أن أصف مشاعري في تلك اللّحظة، هل كنت سعيداً؟ أم أنّ الحزن يعتصرني! هل كنت شجاعاً لأحادثها؟ أم أنّ الخوف يتملّكني!! في وسط دوّامة مشاعري، جاءني صوتها؛ رقيقاً، خائفاً، حائراً:

"مرحباً!"

لم أنطق بشيء، بقيت صامتاً، وهي كذلك. لكنها في صمتها ذاك كانت تعاتبني، تلومني، وتعذّبني. كنت قد نسيتك فلماذا عدت؟ أدرك أنّها قالتها بحروفٍ صامتة، فقد قتلت أجمل كلماتها.

خمسُ دقائق من الصّمت، كانت كافية لأنصت الى صوت أنفاسها المضطرب ،وددت لو أعتذر لها عن كلّ ألم عانته بسببي، وددت لو أنّها صرخت في وجهي وأغلقت سماعة الهاتف. لكنّي سبقتها! فما زلت كما كنت لا أستحقّها!

توقّعت أن تعاود الاتّصال بي، لكن انتظاري بلا فائدة. حاولت النّوم، كنت طوال الوقت أفكّر بها .ماذا كانت ستقول لي؟ هل كانت لتسامحني؛ أم أنّها ستغلق كلّ الأبواب في وجهي؟!!

إنّها السّاعة الواحدة بعد منتـصف اللّيـل، مـا بـال النّـوم لا يزورني! الهاتف يرن، إنّها ريم، ريم تتّصل بي!!!

- ريم!!

- ماذا فعلت بها؟

- لماذا تصرخين؟ ماذا جرى؟

- ماذا قلت لريم ليحدث لها كلّ هذا؟

- من تكونين؟ وأين هي ريم؟

- ريم في المشفى، وأنا متأكدة أنّك أنت السبب!

- ماذا تقولين، وعن أيّ مشفى تتحدّثين!

لا أعلم كيف نهضت من سريري وصـعدت سيارتي، ولا أعلم كيف وصلت إلى ذاك المشفى!

أذكر أنني سألت موظّفة الاستقبال عنهـا، وأخـبرتني أنّهـا في العناية المشدّدة ولن أستطيع زيارتها!!

ركضت و ركضت، حتى وصلت إلى ردهةٍ معتمة؛ تجلس فيها ثلاث نساء، تعرّفت إلى إحداهنّ؛ إنّها خالتي أمّ ريم، الدموع تملأ عينيها، ويبدو أنّها لم تسعد لرؤيتي!!

كنت أخشى الاقتراب، على عكس تلك الفتاة التي تنبّهت على وجودي، وسارت نحوي بكلّ كراهية.

- هل أنت سعد؟

- نعم، من تكونين؛ وماذا حصل لـ"ريم"؟

- قبل ذلك، ما سبب اتّصالك بها؟

- أنا لم أتحدّث معها!

- كيف لا، وقد كان اسمك على هاتفها بمكالمةٍ تسبق مكالمتي بدقائق!

- هل ما زالت تحتفظ برقمي؟!!!

- ماذا حدث؟ أخبرني الآن.

- أنا لم أحادثها، كنّا صامتين نستمع لخيبات قدرنا؛ قبل أن...

- قبل ماذا؟

- قبل أن أقوم بإقفال الخطّ!!

- كيف سأصدّقك!

- عليكِ ذلك، فأنا لن أجرؤ على محادثتها.

- لماذا؟؟

- لأنّي أحبّها، أحبّها ولا أستحقّها!

*****

(11)

دخلت إلى الغرفة التي ترقد فيها ريم، نظرت إليهـا؛ وجهها يبدو شاحباً لا حياة فيه، عينيها الجميلتان نائمتـان، كطفـلٍ هـادئ بلا حراك.

وقفت قرب سريرها، اجتـاحتني رغبـةٌ في البكـاء، أمـسكت يدها، بحت لها بكلّ ما في صدري. أخبرتها كـم أحببتهـا، أخبرتهـا لماذا رحلت وتركتها! أخبرتها أنّي قد عدت لأجلها، صغيرتي أنت وجعي، وأنت شفاء قلبي، وفجأة ..!

- سعد!!

- ....

- أكلّ هذا الحبّ في قلبك لها!

- ....

- لطالما أخبرتني عنك، لكن كلّ ما سمعته كان الشّكوى فقط!!

- كيف دخلتِ إلى هنا؟

- إن كنت تحبّها حقاً، لماذا لم تعد وتخبرها؟ ماذا سيجدي ندمك الآن؟ ماذا لو لم تستيقظ ريم!

- أجيبي سؤالي، كيف دخلت إلى هنا؟ الزيارة ممنوعة!

- كما دخلتَ أنت!

- من أنتِ؟

- فرح!! صديقة ريم.

- أرجوكِ أخبريني، ما الذي حدث!

- دعنا نخرج من هنا، يبدو أنّ هناك الكثير لنتحدث عنه.

(12)

عندما رأيتها لأوّل مرة، انتابني شعور غريب؛ وكأنّني أعرفها منذ زمن. وعلى الرّغم من رفضي لفكرة الزّواج التقليديّ منذ البداية؛ الّا أنّني تماشيت مع الواقع الذي فرضته عليّ والدتي ولم اقاومه.

في يوم الزّفاف كادت ان تطير من الفرح، كالفراشة التي ترى النّور لأوّل مرة. كانت تسترق نظراتٍ إليّ بين دقيقة وأخرى. لأكون صادقاً؛ لم أبالِ بها، أردت أن ينتهي كلّ شيء، وبسرعة!

بين أربعة جدران صمّاء، تركتها صبيحة زفافنا؛ لأتوه في شوارع غريبةٍ عنّي، أجهلها وتجهلني !! وبعد أن قضيت يومي كاملاً بهذه الحيرة، عدت مساءً لأجدها؛ غارقةً بين أكوامٍ من الأوراق والدفاتر والأقلام! لم أكن أعلم قبلاً، شغفها بالكتابة.

أمسكت إحدى الأوراق، وما إن هممت بالقراءة، حتى سمعت وقع خطواتها تقترب منّي. فلم أجد سبيلاً سوى الانسحاب. بالمصادفة لمحت عنواناً لموقع إلكترونيّ، أمسكت حاسبي، وقادني الفضول لتصفّحه حتى ساعات الفجر. لا أعلم

لماذا؟ لكنّها بطريقةٍ ما؛ استطاعت أن تسرق ساعات نومي دون ان تدري.

أذكر إحدى كتاباتها، كانت تحمل عنوان، أرض الأحلام!

كلّ حرفٍ ما زال يتردّد أمام عينيّ:

"حين أدرك أنّها يوماً له لن تكون، أمسك يدها؛ طار بها بعيداً عن كلّ شيء، بعيداً عن مجتمعهم، بعيداً عن بلدتهم، بعيداً عن عاداتهم وتقاليدهم، وبعيداً بعيداً عن كلّ شيء يؤلمها.

سرقها من أرض الواقع إلى أرض الأحلام؛ تلك الأرض التي لن يزور الدّمع فيها عينيها بعد اليوم!!"

كنت أعلم يقيناً أن لا حبّ سكن قلبها قبلاً، فقد كانت تتلعثم أمامي؛ ويحمرّ وجهها خجلاً، وترتعد خوفاً.

اذاً، من ذاك الفارس الخيالي؟ عن من كانت تتحدّث؟ للحظةٍ تمنّيت لو أنّها تتحدّث عنّي! للحظةٍ فقط، تمنّيت أن يتغيّر هذا الواقع الذي يؤلمها؛ لكن!! مهلاً؛ الى أين ستوصلني حماقاتي؟ هذا غباء! فتاة مخادعة!!

*****

في إحدى اللّيالي، بينما كنت جالساً أتابع برامج التّلفاز؛ سمعت صراخاً قادماً من غرفتها، لم أفكّر كثيراً قبل أن أفتح الباب، فاجأتني ثقتها بترك الباب دون قفله!

حين دَخلت؛ كانت تبكي بحرقة. وما إن اقتربت منها، حتى ارتمت بين ذراعيّ كطفلةٍ فارقت والدها، والتقته بعد غياب!!

نسيت نفسي، لكنّي تداركت الموقف قبل أن تشعر بشيء. في المشفى، وبعد أن أكّد لنا الطّبيب سلامة والدتها، جلسَت؛ وكم كنت قريباً منها. كانت تتمتم بجملٍ لم أفهم معظمها. بدا واضحاً عليها كم تكره هذا المكان ومن فيه!

لا أنكر أنّي كنت أكره غموضها ذاك، كانت دوماً حزينة؛ اعتقدت لوهلةٍ أنّني كنت السّبب في حزنها. بحثي المستمرّ في كتاباتها ومشاعرها المخفيّة بين السّطور، أكّد لي عكس ذلك. ربّما أكون جزءاً حديثاً من كوابيسها؛ لكن ما الذي تخفيه عنّي!!

قررت في إحدى اللّيالي أن نخرج سويّاً، لعلّي أصل الى إحدى الحقائق التي تسكنها. كان كلّ شيءٍ مثاليّاً لأخبرها، لأعترف لها أنّ ذاك القلب المشوّه، من رفض الحبّ قبلاً، قد بدأ بالنّبض من جديد!

كانت الكلمات تتراقص في قلبي تستعدّ للخروج، لكن ما الجدوى ان كان المنطق يحاصرني!

قادني الحديث معها الى طريقٍ مسدود، كنت أودّ لو أنّها تفتح لي قلبها، وتبوح بكلّ ما يحزنها. على كلّ حال كنت مخطئاً؛ فقد كانت تجربةً عقيمة!

*****

وأمام كلمة وداعاً، انهارت مدينتنا؛ مدينة الحبّ الفاضل، تلك الّتي رغبت بإقامةٍ جبرية داخل أسوارها، دون أيّ محاولةٍ لبنائها!

أذكر أنّها كانت الحاضرة الغائبة، كانت عيناها تسبحان في فلكٍ، الله وحده من يعلمه. رميت سلامي، حملت حقائبي ومشيت، تاركاً ورائي قلباً؛ أحتاجه أكثر مما يحتاجني!

وصلت المطار، وعلى المقعد جلست. قادني التّفكير إليها، لو أنّها تمسك يدي لأعود معها! لو أنّها فتحت لي قلبها! لو أنّها تبدّد هذا الفراغ بداخلي، ليمتلئ بضحكتها! لو أنّ كلمة 'لو' تصبح ذات معنى!!!

(13)

كيف نأخذ مكاناً، لم يكن من البداية لنا؟ كيف نسطو عليه هكذا، بكلّ برود وبدون استئذان؟ أيحقّ لنا سرقة حياة من نريد؛ لنتمتّع بها دون تقديم أيّ أعذار؟!! هذا تماماً ما حصل معي.كان أخي الضحيّة الأولى، وريم ضحيّة حماقاتي الثانية!

(منذ صغره كان يعاني من ألم في صدره !!)

'كان سعد يجري مسرعاً؛ هارباً من أخيه! ضحكاته تملأ المكان، فجأة، وما إن التفت وراءه، حتى وجد علياً يصارع أنفاسه؛ ممدّداً على أرض باردة. خوفه جعله يصرخ منادياً والدته، وبعد أن تمّ نقله إلى المشفى، صارحهم الطّبيب بحقيقة وضعه، وضعفٌ بالقلب لن يبرأ، على الرغم من قسوة الأيّام .....!!!'

أخي علي، صديق طفولتي، توأمي ونبض قلبي. عاهدني ألّا يفرقنا شيء، مهما قست الظّروف! وعدني أن يمسك يدي، لنسير الطريق الصّحيح. لكنه رحل، تركني دون وداع، خذلني؛ وترك جرحاً عميقاً داخل قلبي!

وتلك الفتاة، حبّ الطفولة البريء، من عشقتها، واعتقدت مخطئاً أنّها ستعوّضني عن أخي، رحلت هي الأخرى؛ تاركةً إيّاي

إنساناً مشتّت القلب، مكسور الأحلام! أصبحت قاسياً، لا أصدّق شيء، لا أؤمن بالبراءة، أو حتى بالحب !!

كبرت على فقد أخي، وخيانة أعزّ الناس إليّ. قررت السّفر، وفي سفري؛ مارست أسوأ أنواع الخطيئة! كنت تائهاً تماماً، كان الطّريق أمامي مظلماً. بلا هويّة، بلا مستقبل ! كرهت نفسي، وكرهت كلّ شيء يربطني بي!!!

إلى أن جاء يوم طالبتني فيه أمّي العودة، فلا قدرة لها على بُعدي عنها! من يلومها، فقد خذلها أخي قبلاً منّي؛ فكيف يمكنني احتمال فكرة كوني الابن العاقّ لأمٍّ صبرت كأمّي!

كانت فرحةً بعودتي، على غير المتوقّع، كان سبب فرحها - إيجاد العروس المناسبة لي- على حدّ قولها.

وأمام رضوخي لرغبتها المُلحّة، لم أكن أعلم أنّ أخطاء الماضي، ستعود لتلاحقني!!

والآن عدت، عدت خائباً؛ أجرّ بيدي طفلةً لا ذنب لها، أسميتها "ريم". لعلّي بقربها منّي، أسدّ وجع قلبي!

- سعد، هل تحبّ ريم حقّاً ؟!

- أبعدَ كلّ ما أخبرتك ما زلت تتساءلين!!

- هل تعدني أن تبقى معها إلى الأبد؟!

- ماذا تقصدين؟ كيف ذلك!!

- اسمعني إذاً جيّداً.

حياة جديدة .....!!

(14)

- أيّها الطّبيب انها تعود.

"تن تن تن تن تن تن ..."

- أيّها الطبيب لقد عادت، عادت حبيبتي ريم.

"فتحت عينيها على وقع كلمة لم تعتدها -حبيبتي ريم- بصوتٍ رجوليّ غريب!"

- هل تسمعينني؟ ريم!!

- أيها الطبيب، اشعر برأسي ثقيلاً جداً. اشعر انّي لا أعرف شيئاً في حياتي؛ غير هذه المشفى! ماذا يجري هنا؟ ومن كلّ هؤلاء!!

- اهدئي ريم.

- لا أريد أن أهدأ، أريد الحقيقة، فقط الحقيقة؛ ولا شيء غيرها، أرجوكم !

- هلّا تتركونني معها لبعض الوقت!

- انّي أسمعك أيّها الطّبيب.

- منذ ثلاثة أشهر، دخلتِ إلى المشفى؛ إثر تعرّضك لـضربةٍ قويّـة على مؤخرة الرأس.

- ماذا؟؟

- وقد كنت غائبة عن الوعي،كدنا أن نفقدك مرّتين. لكنّك كنـت قوية ريم، وأنا أريد شجاعتك تلك طوال فترة العلاج.

"حالة من الصمت والذهول سيطرت عليها!"

- ما سبب الضّياع الذي أشعر به أيها الطبيب؟ وكأنني ولـدت في هذه المشفى ولم أكن قبله شيئاً!!

- لن نحكم على هـذا الأمـر الآن، فـنحن نأمـل أن يتغيّـر مجـرى الأمور إن استرحت لفترةٍ من الوقت.

- هل الأمر خطير إلى هذا الحدّ؟!

- فلنأمل خيراً، استريحي الآن ولن يزعجك أحد.

ها قد عدت وحيدة مرة أخرى، هه؛ من يـدري، يبـدو أنّـني أحبّ البقاء وحدي، لذلك لا يبقون معي!

أتساءل من يكون ذاك الشّاب؛ صاحب العيـنين الزرقـاوين. أيعقل أنني لا أعرفه! أم أنّ النوم الطّويل قد أرهـق ذاكرتـي! مـاذا

فعلت في حياتي! هل قضيت أيّاماً جميلة، هل سافرت إلى بلادٍ بعيدة! هل هناك من يشاركني لحظات حزني قبل سعادتي!

آآآآآآآآآآآه، لقد تعبت؛ لا أريد أن أفكّر أكثر!

*****

- أيّها الطبيب، هل أستطيع أن أحادثها الآن؟

- عليكَ أن تعلم، الأمر لن يكون سهلاً عليها، ربّما ترفضك أو تطالبك بالخروج!

- سأحتمل ذلك.

- وربّما يكون ردّ فعلٍ إيجابياً، فهي تبدو هادئة الطّباع ومتفهّمة.

- هل لي أن أراها الآن!!

- لك ذلك!

- مرحباً ريم.

- أهلاً.

- كيف أنتِ؟

- بخير، شكراً لك!

- هل تذكريني؟

- لا أعلم، هل يجب عليّ ذلك؟!

- أنا سعد!

- ....

- سعد، زوجك يا ريم!!

- ماذا؟!!!

- رفيقة عمري وأيّامي.

(15)

مرّ الآن شهران على خروج ريم من المشفى، في كلّ ليلة تجلس مع سعد؛ لتستمع منه إلى قصص حبّهما المشوّقة. يجلسان ليقرّرا أيّ البلاد سيزوران في الصّيف؛ تقترح "ريم" فرنسا، ولا يمانع!

في كلّ يوم يعود سعد من عمله حاملاً وردة حمراء، يخبّئها وتبدأ رحلة ريم في البحث عنها!

في كلّ ليلة تتقوقع على نفسها، تقترب منه؛ لتنام على أنغام قلبٍ لطالما أحبّها.

سعد وريم؛ قصّة عاشقين، أم كذبة صديقة؟!!!

*****

أحقا نستحق السعادة ...!!

"والجراح على قد ما بتعيش، بتاخد وقتها".

على الرغم من كلّ ألم، وعلى الرغم من كلّ الجراح التي خذلتنا، هناك لحظة؛ ننسى بها كلّ شيء. أمام عينيهم، وأمام تلك الابتسامة الدافئة، أمام كلّ ذاك الحبّ الذي يقدمونه لنا، لا أذكر تلك الفترة من حياتي التي عرفت فيها سعد، ولا أذكر تفاصيل ذكرياتنا، على الرغم من كونه زواجاً تقليدياً "كما أخبرني"، إلّا أنني أحبه وبشدّة، أعشق تفاصيله، كلماته، عينيه الجميلة، ألحانه التي أغفو عليها كلّ مساء، دفء يديه! أحبّه بكلّ جوارحي، لم أعد أهتم إن كان الماضي سعيداً أم حزيناً، إنّي أعيش معه حاضري، وسأخطّط معه لمستقبلنا معاً، اسم أوّل طفلٍ لنا، لون غرفته، الأماكن التي سنزورها، والأشخاص الذين ستتعرف إليهم و ...

- ريم عزيزتي، ماذا تفعلين؟

- لا شيء مهم، لقد كنت أكتب فقط!

- هل لي برؤية كتابتك؟

- لا لا، إنّها سر.

- حسناً حسناً يا أميرتي، لن أسترق النّظر، هل أنت مستعدّة للسفر؟!

- نعم نعم، أنا جاهزة.

الآن أنا في المطار، أجلس على المقعد، وريم؛ طفلتي المدلّلة تجلس قربي. أمسك يدها وأكاد أن أطير من الفرح، عيناها تشرقان بالسعادة. لأوّل مرّة أرى ابتسامتها ترتسم صادقةً على وجهها. أريد أن أكون معها بكلّ تفاصيل حياتها الصغيرة والكبيرة، أريد أن أكون الفرح لقلبها، أريدها أن تنسى كلّ ألم، وأن لا يعرف الحزن طريقاً لقلبها، ذاك القلب الذي أعادني إلى نفسي، ذاك القلب الذي أعاد ثقتي بالحبّ، ذاك القلب الذي ما دام ينبض بالحياة سيحبّها وحدها! لا أعلم ماذا كان ليحدث لي لو تركتني ريم في ذاك اليوم، لا أعلم كيف كنت لأعيش بدونها، لا أعرف كيف كنت سأحتمل رؤيتها بلا حياة!

- سعد! بماذا تفكّر؟!

- بكِ أنتِ!

- ممممم، حسناً سأصدّقك.

"نداء إلى المسافرين ...."

- عزيزتي، إنّها رحلتنا، هيّا بنا ....

(18)

ذاك المجنون سعد، مضى عامٌ الآن منذ ذاك الحادث المشؤوم. لا أذكر يوماً مرّ عليّ؛ دون أن يجلب لي هدية، وردة ، شوكولاتة، عطور، لا أعتقد أنّ حبّاً كهذا قد يرحل يوماً.

ما أجمله ، حين ينظر إليّ وسط الجموع ويبتسم، ابتسامته الغامضة تلك؛ كم أنا حائرةٌ بها!

يخاف عليّ كطفلة، يخشى عليّ من الحزن، يردد لي دوماً: "أنت سعادتي، لا أريد أن أرى الدّمع بعينيكِ، ولن أسمح للحزن أن يطرق أبوابك".

يجلس قربي كلّ مساء، يسند رأسه إلى كتفي؛ ويقصّ عليّ الحكايات! انّ حبّه كالسّحر تماماً، في كلّ مرّةٍ أجلس فيها مع نفسي، ينتشلني من دوّامات الضّياع التي أغرق بها، عنده جوابٌ لكلّ أسئلتي. لا يسمح للشكوك أن تتسلّل إلى داخلي!

في كلّ يوم، نعيش مغامرةً جديدة، وكلّ يوم، يحمل لي مفاجأةً من مفاجآته الغريبة!

*****

- ريم!!

- ما بكَ يا عزيزي؟

- أريد أن أسألكِ سؤالاً!

- بالطّبع، وهل تحتاج إلى الإذن بذلك!

- ريم، إن أنا أخطأت يوماً؛ فهل ستسامحينني؟

- ماذا؟ لم أفهم سعد؟!!

- مثلاً، إن كنت يوماً سبباً في حزنك، فهل ستسامحينني؟

- لا تقلق يا عزيزي، لا أعتقد ذلك!

- هل يعني أنّك لن تسامحيني!

- لا لا، أقصد أنّك لن تكون سبب حزني.

- ريم.

- سعد، أريد أن أنام.

- بأمركِ، صغيرتي.

كطفلةٍ اعتادت أن تنكمش في حضن والدها، تنكمش ريم كلّ ليلة قرب سعد. ذاك الشّعور الغريب الذي يسكنها، سعادة، أمان، لا أحد في هذا العالم يستطيع أن يقترب منها، أو يؤذيها!

لكن .....،

ماذا لو كان أقرب الأشخاص إلى قلوبنا؛ هم من يملكون سلاحاً قد يقتلوننا به في أيّ لحظة!!

ماذا لو كانت تلك السّعادة كاذبة؟

ماذا لو استيقظنا من هذا الحلم الجميل، على واقعٍ بشع!!

ماذا لو عرفنا تلك الحقيقة من غيرهم؟

ماذا لو انهارت صورتهم أمام أعيننا!

ماذا لو!!!

*****

(19)

جرس الباب يرن .....

- سعد، هل تستطيع فتح الباب، فأنا غارقةٌ بين أكوامٍ من الفوضى!!

- بالطّبع عزيزتي، أهلاً أهلاً فرح.

- كيف حالك يا سعد؟ وكيف هي ريم!

- أنا بخير، وريم غارقةٌ في التّرتيب؛ كم تكره الفوضى تلك الفتاة!

- حسناً، سأساعدها إذاً.

- فرح! انتظري، لن أستطيع أن أكذب أكثر على ريم!

- ماذا حصل؟ ألم تعد تحبّها!

- بالطّبع أحبّها! لكنّ قلبي يؤلمني كلّما رأيتها حائرةً تحاول تذكّر ماضيها، أتألّم حين تسألني عن تفاصيل زفافنا وفترة خطوبتنا، تمزّقني ابتسامتها تلك، حين تخبرني أنّني سعادتها الوحيدة، وبأنّ ماضيها كان رائعاً، طالما أنّني كنت معها!

- سعد! لقد اتّفقنا، إنّ هذا لمصلحتها.

- أريد أن أخبرها الحقيقة، وأن أدعها هي لتقرّر ذلك.

- لن تُسامحك، صدّقني ! ألا يهمّك أن تكون سعيدة! ألا تستحق ريم السّعادة؟!!

- تستحقّ السعادة الحقيقيّة يا فرح!!

- حسناً سعد، دعنا نتحدّث لاحقاً. سأذهب لأراها الآن.

ريم، صديقتي؛ لقد اشتقت إليكِ ..!

- ....

- ما هذا الصّندوق؟ ماذا تقرئين!

- إنّها رسائلي!

- ماذا؟؟

- رسائلي إلى سعد!

- ....

- رسائلي إلى سعد حين غادر وتركني؛ في الأوّل من إبريل ! لماذا أنت صامتة فرح؟

- ريم، أنااااااا...

- كذبةً أخرى!!

- .....لا علاقة لسعد، ...إنّني ...!!

- ششششش، لا أريد أن أسمع شيء. كيف فعلتم هذا بي؟!

- ريم، لقد كنّا ..،

- اخرجي من هنا حالاً، أنت وذاك المخادع؛ لا أريدكم في حياتي!!

- ريم اهدئي!

- اخرجي من هنا، فوراً ...!

- حسناً، كما تريدين.

- ريم، فرح !! ماذا يحدث هنا؟

- أهلاً سعد، اخبرني؛ هل حضّرت لي كذبةً جديدة؟!

- ماذا تقصدين؟ وما هذا بيدك؟!

- آه صحيح، فأنت لم تقرأ شيئاً من رسائلي! فقد رحلت، دون محاولةٍ للتّبرير حتّى!!

- ريم ...، أنا ...، كنت...، سوف...

- لا أريد سماع شيء، يا أجمل كذبة!!!

يبدو أنّ ريم المتسامحة، الطّيبة، ذات القلب المحبّ؛ لم تعد كما كانت! صوتها المخنوق ما عاد يهوى الصّمت، فقد اختارت أن تصرخ هذه المرّة! أن تُسمع الكون ضجيج كلماتها.

وحروفها، تلك من اختارتها يوماً كحاكمٍ عادل، قرّرت أن تهجرها، وترمي بها وراء ظهرها.

آلآن استفقتِ يا ريم؟ بعد أن بدأ كلّ شيء يسير على ما يرام! بعد أن عاد سعد؛ لأجلك أنتِ!!

الآن قرّرتِ أن تهجري تسامحك؟ حين بات كلّ من حولك يشبهك؛ اخترتِ الاختلاف!!

لا أعلم إن كان هذا صواباً أم خطأ ! لكنّه أحبّك، وأعاد بناء أحلامك من جديد، فلماذا تطعنين بنفس الخنجر الذي قتلكِ!!!

(20)

والآن عادت ريم وحيدة، تركت كلّ شيء على حالـه؛ ولم تكلّف نفسها عناء السؤال. بعد أن سـارت كـلّ الأمـور علـى مـا يرام، وبعد الأمل الذي رسمته في حياة سعد.

إذن فالنّهاية حزينة، كحال كلّ قصص الحـبّ الـتي أعرفهـا. وعود كاذبة بالبقاء، وفي النهاية يكون الفراق من نصيبنا!

لم أؤمن يوماً بالنهايات الـسّعيدة، كانـت بالنـسبة لـي مجـرّد أساطير كاذبة! "وعاشـا معـاً بـسعادة"، ليـست مدرجـةً في قـاموس حياتي!

دائماً أتوقّع الأسوأ، وبذلك تكون:

"رحلت ريم من حياة سعد، تماماً كما سـبق وتركهـا. عـادت لبناء حياتها من جديد، قرّرت أن تبدأ وحدها، أن تكمـل الطّريـق دون من يساندها. كان قراراً لا رجعـة فيـه. علّمتهـا الحيـاة كيـف تكون قويّة، قاسية، لا يعرف الحبّ طريقاً إليها، وهكذا ولدت ريم من جديد، تماماً كنقيضٍ لنفسها. فالطّيبة والتّسامح لن تعـرف لهـا

طريقاً بعد اليوم. لا جمال في هذا العالم، لا شتاء سيطرق نوافذها، ولا أمل سيزور عينيها!

أمّا سعد، فلم يبالِ كثيراً! كثيراتٌ من هنّ بجمال ريم وطيبة قلبها، لا فرق عنده إن اختار إحداهنّ لتكمل معه حياتها، فـ بالنّهاية كان زواجاً تقليدياً ولا ضرر من تكرار التّجربة".

لكن...

لست سيئةً الى هذا الحدّ! هناك لحظة من حياتي قرّرت فيها الاختلاف. قررت فيها أنّ أحلامنا مهما كبرت، لا بدّ أن نؤمن بها لتتحقّق!

أحلامنا إن نحن تركناها، سننكر هويتنا، لن يعود لوجودنا معنى، لن يعود لابتسامتنا جمال، ولن نستلذّ بلحظة سعادةٍ تتملّكنا!

أحلامنا هي نحن، ونحن أحلامنا، نكمل بعضنا بعضاً، كالتّوأم؛ لا سبيل لعيش أحدنا دون الآخر!

تلك هي أحلامنا، وهؤلاء هم نحن، وما دمنا نريد شيئاً بشدّة، فالعالم كلّه سيطاوعنا على تحقيقه!!

"عندما تريد شيئاً ما، حقاً، فإنّ الكون بأسره يطاوعـك علـى تحقيق رغباتك".

باولو كويلو

(21)

رن هاتف سعد....

- مرحباً

- سعد !!!

- صغيرتي

- ....

- لا تصمتي أرجوك

- ....

- اصرخي كلّ وجعك لكن لا تصمتي

- ....

- ريم، أحبّك ملء الأرض وقلبي يتألّم في غيابك عني، أعتذر عن كلّ شيء، أعلم أنّ خطئي كبير لكن قلبك أكبر، لم أرد إيذائك يا طفلتي، لكني أردت لنا فرصة أخرى؛ لأرسم ابتسامتك من جديد، ليشفى قلبك، لتموت دمعتك.

- سعد، أنا ....

- قولي ما تريدين يا روحاً سكنتني!

- سعد، أريدك!!!

- ....

- أريد أن أكون معك حتى آخر يوم في عمري.

- ....

- أريد أن تسرقني من هذا العالم الكبير، أريد أن أسكن قلبك، أن أنسى كلّ ماضٍ لم يكن بقربك. أريد أن أرسم طريق سعادتي معك، أريد طفلاً يحمل ملامحك. أريد حبّك سعد، آااه يا سعد، تعبت وبين يديك سأجد راحتي، تعبت وما عدت أقوى خذلاناً آخر، تعبت ولا أريد أن أبقى وحدي .....

تعبت !!!!

- حبيبتي، سأدفن الماضي، وأدفن معه كلّ وجعك. سأعيد بناء ثقتك بي، سأخبئك بين ذراعيّ ولن أسمح لأي كان أن يؤذيك.

- سعد، هل لك أن تأتي لتأخذني، فاتني موعد الطائرة، وها أنا أنتظرك!!

*****

نستطيع البدء من جديد، حين نسامح، حين ندع الحبّ يملأ قلوبنا، حين نؤمن أنّنا نستحقّ فرصةً ثانية لنعيش الفرح !!!

لأنّكِ تستحقين السّعادة !!

إسلام الشّريف

2015/8/ 2

كنت أريد أن أنسى يا صديقتي، وددت لو أنّي بقربه؛ أدفن كلّ ماضٍ آلمني. أن أعود طفلةً من جديد، ألّا أخاف أبداً، أن أبدأ حياتي بقلب صافٍ؛ لا يشكو شيء، لكن ..! لكنّه رحل يا صديقتي، ذهب دون أسباب؛ أو حتى أعذار، رحل بلا سابق انذار؛ لم نتّفق ولم نختلف ! لم يحدث بيننا شيء، لقد كان مجرّد كذبةٍ عابرة ...!

لوحة الغلاف: هبة مسعد

دار دجلة
ناشرون وموزعون

عمّان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: 96264647550+ خلوي: 962795265767+
ص ب: 712773 عمان 11171 الأردن
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com

9 789957 715861